رويّ الحاء

أنا عين المسوَّد

وقال في صباه وقد بُلِّغَ عن قوْمٍ كلاماً: [الخفيف]

أَنَـا عَـيْـنُ الـمُـسَـوَّدِ الـجَـحْـجَـاحِ
هَـيَّـجَـتْـنِـي كِـلَابُـكُـمْ بِـالـنُّـبَـاحِ(١)
أَيَـكُـونُ الْـهِـجَـانُ غَـيْـرَ هِـجَـانٍ
أَمْ يَـكُـونُ الـصُّـرَاحُ غَـيْـرَ صُـرَاحِ(٢)
جَـهِـلُـونِـي وَإِنْ عَـمَـرْتُ قَـلِـيـلاً
نَـسَـبَـتْـنِـي لَـهُـمْ رُؤُوسُ الـرِّمَـاحِ(٣)

نفديك من سيل ندى

يمدح مساور بن محمد الرومي: [الكامل]

جَـلَـلاً كَـمَـا بِـي فَـلْـيَـكُ الـتَّـبْـرِيـحُ
أَغِـذَاءُ ذَا الـرَّشَـإِ الأَغَـنِّ الـشَّـيـحُ(٤)

---

(١) المسوّد: هو من جعله قومه سيداً عليهم. الجحجاح: السيد الكريم. يفخر الشاعر أنه مسوّد في قومه وسيد كريم ثار لكرامته لمقالة كلاب نابحة لئام تقوّلوا عليه ما يشينه ونعتوه بما هو ليس فيه.

(٢)٢ الهجان: الرجل الأصيل النسب. الصراح: الخالص النسب. يستنكر الشاعر أن تنقلب المقاييس الإنسانية، فالصريح النسب لا يمكن إلّا أن يبقى على أصالته قولاً وعملاً وخلقاً، وما ذكر من سيّئ الكلام لا يُعيره التفاتة، والهجاء لا يؤثر عليه فهو صريح النسب الرفيع.

(٣) ينعى الشاعر على القوم جهلهم به، وهو يتهدّدهم أنه إذا التقاهم في ساحات القتال سيعرفون من هو عندما يستعمل الرماح التي تكشف عن نبل محتده وعراقة أصله.

(٤) الجلل: كلّ أمر عظيم. التبريح: الأذى. الرشأ: ولد الظبية إذا قوي واستغنى عن أمه =

لَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ وَغَادَرَتْ
صَنَماً مِنَ الْأَصْنَامِ لَوْلَا الرُّوحُ (١)
مَا بَالُهُ لَاحَظْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ
وَجَنَاتُهُ وَفُؤَادِيَ الْمَجْرُوحُ (٢)
وَرَمَى وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ فَصَابَنِي
سَهْمٌ يُعَذِّبُ وَالسِّهَامُ تُرِيحُ (٣)
قَرُبَ الْمَزَارُ وَلَا مَزَارَ وَإِنَّمَا
يَغْدُو الْجَنَانُ فَنَلْتَقِي وَيَرُوحُ (٤)
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفَّنَا
تَعْرِيضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ (٥)

= ونبت له قرنان. الأغن: ذو الصوت الجميل. الشيح: من النباتات الطيبة الرائحة، يبدأ الشاعر قصيدته بالغزل شأن الجاهليين. لقد ألمّ به أمر عظيم، إنه متيّم ولقد برّح به الشوق إلى غزال، صوته عذب وموسيقى تنساب في الأذن، غذاؤه طيب المنبت والرائحة العبقة تغسل الهموم، ويسأل الشاعر عن محبوبته التي تتغذّى بقلبه وتنهش به بلطف فيُحسّ رعشة الجسد ونحوله وتلوّح به تباريح العشق.

(١) الشمول: من أسماء الخمرة. يصف الشاعر خُطى حبيبته، لقد لعبت الخمرة بها فإذا بها تميس ميلاء، ممّا حوّلها إلى صنم اكتملت فيه عناصر الفنّ والتناسق البديع، فضلاً عن روحها التي تنمّ عن حياة وحركة الشباب الغض.

(٢) تضرّجت بالدم: احمرّت. فؤادي: قلبي. تتلاقى النظرات فترسم علائم الشوق على الخدود حمراء عنوان الخفر والحياء، وذلك أجمل ما في المرأة؛ وهذا ما جعل فؤاد الشاعر يتألّم وتتسارع دقات قلبه معلنة عن جراح مؤلمة.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٣٣، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٣٧١، إنها نظرات فاتنة وسهام قاتلة صوّبتها عينان جميلتان تخترق الحجب وتعذب ولكنها غير قاتلة لأنها ليست كسهام المقاتلين التي تميت وتريح.

(٤) الجنان: القلب. ثمَّة قرب مكاني بين الشاعر وحبيبته حيث لا لقاء، فخوف الشاعر من عيون الرقباء الذين يُحصون عليه حركاته ولفتاته يحتم عليه ألّا يزور محبوبته، وبالطبع فهناك لقاء وِجداني يجمع بينهما، إنه لقاء القلوب وقد تخطّت الحجب، فالتقت على الحبّ.

(٥) فشت: انتشرت. السرائر: مخبئات القلوب. شفّه: أضناه، إنها نظرات تكشف ما في =

لَـمَّـا تَـقَـطَّـعَـتِ الْـحُـمُـولُ تَـقَـطَّـعَـتْ
نَـفْـسِـي أَسًـى وَكَـأَنَّـهُـنَّ طُـلُـوحُ[١]
وَجَـلَا الْـوَدَاعُ مِـنَ الْـحَـبِـيـبِ مَـحَـاسِـنـاً
حُـسْـنُ الْـعَـزَاءِ وَقَـدْ جُـلِـيـنَ قَـبِـيـحُ[٢]
فَـيَـدٌ مُـسَـلِّـمَـةٌ وَطَـرْفٌ شَـاخِـصٌ
وَحَـشًـى يَـذُوبُ وَمَـدْمَـعٌ مَـسْـفُـوحُ[٣]
يَـجِـدُ الْـحَـمَـامُ وَلَـوْ كَـوَجْـدِي لَانْـبَـرَى
شَـجَـرُ الْأَرَاكِ مَـعَ الْـحَـمَـامِ يَـنُـوحُ[٤]
وَأَمَـقَّ لَـوْ خَـدَتِ الـشَّـمَـالُ بِـرَاكِـبٍ
فِـي عَـرْضِـهِ لِأَنَـاخَ وَهْـيَ طَـلِـيـحُ[٥]

= القلوب التي عذّبها الحبّ وأضناها البعد، فإذا بالسرائر تُعلن عمّا تُضمره القلوب وتفضح المكنون، فيطلّ التصريح من بينها.

(١) الحمول: ما تحمله الإبل من هوادج. الطلح: ضرب من الشجر الضخم العظيم. يصف الشاعر ساعة الفراق، في إحدى زوايا المشهد الحزين يقف الشاعر ينظر إلى الظاعنين، ومن بينهم حبيبته، إنها في هودج كأنه شجر الطلح يظللها بظلّ وافر حيث تنعم لا مبالية، وفي المقابل عاشق تتقطّع نفسه ألماً وحزناً على فراق قد لا يكون بعده لقاء.

(٢) لقد كانت الحبيبة في أجمل حالاتها وأتمّ صورها وأبهى مظاهرها وهذا أفقد الشاعر الصبر، فاستحال الصبر مشوه الصورة في غاية القبح، فقد نفذت ذخيرته.

(٣) يصف الشاعر الحالة التي كان عليها لحظة الوداع، إتماماً للمشهد، إنه يلوّح بيده مُسلِّماً علّها تراه فيرقّ قلبها لحالته، وعيناه قد تسمّرت بهودجها وكأنه غاب عن سائر المشهد للظاعنين، وقلبه هائم حزين، ودمعه يُغطي وجنتيه لفراق حبيبته.

(٤) يجد: يهيم حبًّا وحزناً. انبرى: اندفع. الأراك: ضرب من الشجر. الحمام رمز الوداعة والحبّ، فلو كان يُحبّ كما أحبّ الشاعر لاندفع يبكي إلفه على أحد الأغصان في تلك الشجرة التي تعانق السماء.

(٥) الأفق: الدرب الطويل. الوخد: ضرب من سير الإبل السريع. الطليح: المجهد عياءً من شدّة السير. يصف الشاعر بعد الشّقة وطول الطريق، فلو أن ريح الشمال العنيفة هبّت في عرض تلك الطريق لأجبرت راكب الناقة على النزول والاحتماء منها وقد تلاشت قوّتها وضعفت، فكيف حال الإنسان في طريق كهذه؟

نَـازَعْـتُـهُ قُـلُـصَ الـرِّكَـابِ وَرَكْـبُـهَـا
خَـوْفَ الْـهَـلَاكِ حُـدَاهُـمُ الـتَّـسْـبِـيـحُ (١)
لَـوْلَا الْأَمِـيـرُ مُـسَـاوِرُ بْـنُ مُـحَـمَّـدٍ
مَـا جُـشِّـمَـتْ خَـطَـراً وَرُدَّ نَـصِـيـحُ (٢)
وَمَـتَـى وَنَـتْ وَأَبُـو الـمُـظَـفَّـرِ أَمُّـهَـا
فـأَتَـاحَ لِـي وَلَـهَـا الْـحِـمَـامَ مُـتِـيـحُ (٣)
شِـمْـنَـا وَمَـا حُـجِـبَ الـسَّـمَـاءُ بُـرُوقَـهُ
وَحَـرًى يَـجُـودُ وَمَـا مَـرَتْـهُ الـرِّيـحُ (٤)
مَـرْجُـوُّ مَـنْـفَـعَـةٍ مَـخُـوفُ أَذِيَّـةٍ
مَـغْـبُـوقُ كَـأْسِ مَـحَـامِـدٍ مَـصْـبُـوحُ (٥)

(١) نازعته: خاصمته. القلص، الواحدة قلوص: النياق الفتية. الركب، الواحد راكب: الظاعنون. الحداء: سوق الإبل والغناء لها. يصف الشاعر حالة الأجواء التي أحاطت برحلته للوصول إلى ممدوحه؛ إنه الجهد العظيم في جوّ، تهبّ فيه رياح هوجاء، والركب يتحرّك ببطء شديد والخوف قد استولى على القلوب، ونزاع بين الشاعر وناقته؛ فهو يُجبرها على السير، والأمر عسير، وأصوات تتصاعد، في ساعة العسرة مستنجدة بربّ السمٰوات والأرض؛ وهذا ما حمل الإبل على المسير، فإذا بنداء الاستغاثة والتسبيح يحلّان محلّ الحِداء.

(٢) جشمت: كلفت مشقة. ثمَّة عوائق تحول دون السفر إلى الأمير مساور بن محمد، بعد الشّقّة وخطورة الطريق، فضلاً عن نصح من نبّه من مغبّة الأمر، ورغم ذلك ورغبة في المثول بين يدي الأمير فقد تجشم الشاعر المشقة وحمل ناقته على خوض تلك المجازفة.

(٣) وَنَت: ضعفت وفترت همتها. الحِمام، بكسر الحاء: الموت. يعلن الشاعر عن رغبته الصادقة بالمجيء إلى بلاط الأمير، رغم الإرهاق الشديد الذي حلّ به وبناقته، ولن يثنيه عن ذلك سوى الموت الذي قد يحلّ به وبناقته.

(٤) شام البرق: نظر إليه يتوقّع مطره. الحري: الجدير، المستحقّ. يجود: يمطر. مرته الريح: استمطرته. يعلن الشاعر عن سبب مجيئه إلى بلاط ممدوحه، إنه يأمل منه الجود والنوال، فأفقه يُؤذن بخير يعمّه فيضه، وثمَّة فرق بين مطر السماء، فإنه يحجب جمالها، بينما يكشف كرمه عن جمال طبعه وإشراقة نفسه فتبدو سماؤه في أجلى صورها وأجملها.

(٥) المغبوق: الذي يسقي في المساء. المصبوح: الذي يسقي في الصباح. يصف الشاعر =

حَـنِـقٌ عَـلَـى بِـدَرِ الـلُّـجَـيْـنِ وَمَـا أَتَـتْ
بِـإِسَـاءَةٍ وَعَـنِ الـمُـسِـيءِ صَـفُـوحُ (١)
لَـوْ فُـرِّقَ الْـكَـرَمُ الـمُـفَـرِّقُ مَـالَـهُ
فِي الـنَّاسِ لَـمْ يَـكُ فِي الـزَّمَـانِ شَـحِـيحُ (٢)
أَلْـغَـتْ مَـسَـامِـعُـهُ الـمَـلَامَ وَغَـادَرَتْ
سِـمَـةً عَـلَـى أَنْـفِ الـلِّـئَـامِ تَـلُـوحُ (٣)
هٰـذَا الَّـذِي خَـلَـتِ الْـقُـرُونُ وَذِكْـرُهُ
وَحَـدِيـثُـهُ فِـي كُـتْـبِـهَـا مَـشْـرُوحُ (٤)
أَلْـبَـابُـنَـا بِـجَـمَـالِـهِ مَـبْـهُـورَةٌ
وَسَـحَـابُـنَـا بِـنَـوَالِـهِ مَـفْـضُـوحُ (٥)
يَـغْـشَـى الـطِّـعَـانَ فَـلَا يَـرُدُّ قَـنَـاتَـهُ
مَـكْـسُـورَةً وَمِـنَ الْـكُـمَـاةِ صَـحِـيحُ (٦)

= ممدوحه، إنه أمل المحتاج ومقصده، ومن حلّ في دياره لن يصيبه ضرر، فهو مسالم، وجوده لا يرتبط بزمان، بل إنه يُنفق ليل نهار، وكرمه يُحيي الصديان ويرويه في كلّ زمان.

(١) البدر، الواحدة بدرة: كيس المال المليء بعشرة آلاف درهم. اللّجين: الفضة. ومن طبع الممدوح أنه غضوب على المال، فهو ينفقه ليتخلّص من غضبه، وهو يمتاز بالحلم، فلا يغضب على المسيء بل إنه يُحسن إليه، لبعد همّته وحلمه.

(٢) الشحيح: البخيل. وما يدلّ على غناه العظيم، لو أن الممدوح وزّع ماله في الخلق لما بقي بخيل اقتداءً به، ولكانوا كرماء.

(٣) يصف الشاعر ممدوحه بأنه لا يهتم بقول القائلين اللائمين له المحذّرين من إتلافه أمواله وإنفاقها على المادحين، فتلك صفة اللئام من البخلاء الذين أطاعوا للاحين وعملوا بنصحهم.

(٤) خلت القرون: مضت. يُعقّب الشاعر على ذلك أن ذكر الكرماء يُدوّن في الكتب، وللكرم تاريخ طويل مجيد وقد ورد ذكرهم في أسفار الماضين.

(٥) الألباب، الواحد لبّ: العقول والقلوب. النوال: العطاء. لقد افتتن الشاعر وكلّ من كان على شاكلته. سحرته وفتنته أخبار الممدوح في فنون الكرم لديه، وما يدلّ على ذلك أن الشاعر ينعم بفيوض عطائه البادية عليه.

(٦) الكماة، الواحد كمي: الشجاع المدجج بالسلاح. يعرّج الشاعر على شجاعة =

وَعَـلَـى الـتُّـرَابِ مِـنَ الـدِّمَـاءِ مَـجَـاسِـدٌ
وَعَـلـى الـسَّـمـاءِ مِـنَ الْـعَـجَـاجِ مُـسُـوحُ (١)
يَـخْـطُـو الْـقَـتِـيـلَ إِلـى الْـقَـتِـيـلِ أَمَـامَـهُ
رَبُّ الْـجَـوَادِ وَخَـلْـفَـهُ الـمَـبْـطُـوحُ (٢)
فَـمَـقِـيـلُ حُـبِّ مُـحِـبِّـهِ فَـرِحٌ بِـهِ
وَمَـقِـيـلُ غَـيْـظِ عَـدُوِّهِ مَـقْـرُوحُ (٣)
يُـخْـفِـي الْـعَـدَاوَةَ وَهْـيَ غَـيْـرُ خَـفِـيَّـةٍ
نَـظَـرُ الْـعَـدُوِّ بِـمَـا أَسَـرَّ يَـبُـوحُ (٤)
يَـا ٱبْـنَ الَّـذِي مَـا ضَـمَّ بُـرْدٌ كَـابْـنِـهِ
شَـرَفـاً وَلَا كَـالْـجَـدِّ ضَـمَّ ضَـرِيـحُ (٥)

= ممدوحه بعدما أفاض في الحديث عن كرمه؛ إنه يرمي نفسه بين صفوف المقاتلين وقد جرّد رمحه فلا يرد إلّا بعدما يشرب من دماء الأبطال الذين يحتمون بالدروع التي لم تغنِ عنهم شيئاً أمام بطل همام.

(١) المجاسد: الواحد مجسد، وهو المصبوغ بالزعفران. العجاج: الغبار. المسوح، مسح: ما ينسج من الأردية السوداء. يصف الشاعر أعمال ممدوحه في أثناء المعركة، لقد ترك أرض المعركة وقد تغطّت بالدماء فبدت وكأنها ارتدت رداءً أصفر، فجثث القتلى تبعثرت وغطّت المكان، والغبار تصاعد في جوّ المعركة، فبدت السماء كأنها قد لفّها مسوح أسود.

(٢) يصف الشاعر ممدوحه وقد راح يتفقّد القتلى، إنه يمتطي جواده الذي يتنقّل بين جثث القتلى، وقد تمزّقت أشلاؤها وتبعثرت في كل مكان من ساحة المعركة، وقد تبعثرت بالتراب.

(٣) و (٤) انقسم الناس في الممدوح قسمين: فالمحبّ قد اطمأنّ لسلامته فهو مستريح البال، والعدوّ بات مجروح الفؤاد يملأه غيظ وحنق وغضب وحسد يعمي القلوب والعيون، ورغم ذلك فإنه يتصنّع الودّ وحسن الاستقبال بيديه، ولكن نظره يفضحه، فلا يُحسن الروغان.

(٥) البرد: ضرب من الأثواب. الضريح: القبر. يخاطب الشاعر ممدوحه، فقد ورث الشرف ورفعة الحسب من جَدّه الذي ضمّه قبر، وللوراثة أثر في الأحفاد.

نَـفْـدِيـكَ مِـنْ سَـيْـلٍ إِذَا سُـئِـلَ الـنَّـدَى
هَـوْلٍ إِذَا ٱخْـتَـلَـطَـا دَمٌ وَمَـسِـيـحُ (١)
لَـوْ كُـنْـتَ بَـحْـراً لَـمْ يَـكُـنْ لَـكَ سَـاحِـلٌ
أَوْ كُـنْـتَ غَـيْـثـاً ضَـاقَ عَـنْـكَ الـلُّـوحُ (٢)
وَخَـشِـيـتُ مِـنْـكَ عَـلَـى الْـبِـلَادِ وَأَهْـلِـهَـا
مَـا كَـانَ أَنْـذَرَ قَـوْمَ نُـوحٍ نُـوحُ (٣)
عَـجْـزٌ بِـحُـرٍّ فَـاقَـةٌ وَوَرَاءَهُ
رِزْقُ الْإِلٰـهِ وَبَـابُـكَ الـمَـفْـتُـوحُ (٤)
إِنَّ الْـقَـرِيـضَ شَـجٍ بِـعِـطْـفِـي عَـائِـذٌ
مِـنْ أَنْ يَـكُـونَ سَـوَاءَكَ الـمَـمْـدُوحُ (٥)
وَذَكِـيُّ رَائِـحَـةِ الـرِّيـاضِ كَـلَامُـهَـا
تَـبْـغِـي الـثَّـنَـاءَ عَـلَـى الْـحَـيَـا فَـتَـفُـوحُ (٦)

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٣٣. السيل: المطر، كناية عن شدّة هطوله. المسيح: ما يسحّ كالعرق ونحوه. يُبدي الشاعر استعداده للتضحية بنفسه لمن يتمثّل فيه الكرم فيّاضاً بنداه وكثرته، وشجاعته وبطولته عندما تندفق الدماء حرّى من أجساد قتلاه، فيبدو هول أفعاله فيهم على حقيقته.

(٢) و (٣) الغيث: السحاب الممطر. اللوح: الهواء بين السماء والأرض. يصوّر الشاعر عظمة كرم الممدوح، إنه بحر زاخر بغناه وعطائه ولا حدود له لاتساع آفاقه، وهو سحب مترعة بالخير، فإذا بالسماء تضيق به لامتداد مداه، وهذا يثير في الشاعر خوفاً عظيماً لئلّا يعمّ البلاد طوفان كطوفان نوح عليه السلام، وقد أنذر قومه، ولكنهم لم يستمعوا له.

(٤) ينعى الشاعر على من لا يقصد ممدوحه لمساعدته بعجزه وتكاسله، فقد رزق اللّه تعالى ممدوحه رزقاً يُوزّعه في خلقه، فهو مُوكلٌ وواسطة بين الرازق والمرزوق.

(٥) القريض: الشعر. شجٍ: حزين. العِطف، بكسر العين: الجانب. عائذ: لاجئ. يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بأن الشعر يحزن إذا مدح الشاعر غير ممدوحه وأشار به، فإن غيره لا يستحقّ المدح والتنويه بفضائله ومزاياه.

(٦) الحيا: المطر. يذكر الشاعر أن المديح بمثابة روضة تفوح عبقاً وطيباً وقد أحياها =

جُـهْـدُ الـمُـقِـلِّ فَـكَـيْـفَ بِـابْـنِ كَـرِيـمَـةٍ
تُـولِـيـهِ خَـيْـراً وَالـلِّـسَـانُ فَـصِـيـحُ[١]

جارية بلا روح

وأديرت فوقفت حذاء أبي الطيب، فقال: [المنسرح]

جـارِيَـةٌ مَـا لِـجِـسْـمِـهَـا رُوحُ
بِـالْـقَـلْـبِ مِـنْ حُـبِّـهـا تَـبَـارِيـحُ[٢]
فـي كَـفِّـهَـا طَـاقَـةٌ تُـشِـيـرُ بِـهَـا
لِـكُـلِّ طِـيـبٍ مِـنْ طِـيـبِـهَـا رِيـحُ[٣]
سَـأَشْـرَبُ الْـكَـأْسَ عَـنْ إِشَـارَتِـهَـا
وَدَمْـعُ عَـيْـنِـي فِـي الْـخَـدِّ مَـسْـفُـوحُ[٤]

يقاتلني الليل عليك

ثم أراد الانصراف فقال: [الوافر]

يُـقَـاتِـلُـنِـي عَـلَـيْـكَ الـلَّـيْـلُ جِـدًّا
وَمُـنْـصَـرَفِـي لَـهُ أَمْـضَـى الـسِّـلَاحِ[٥]

= المطر، فكذلك المديح يُعتبر كأنه تذكير بالكريم من كرماء الزمن فتبدو حديقته غنّاء باستمرار، وتبقى على الزمن فوّاحة عطرة.

(١) المقلّ: من قلت ذات يده. الجهد: القدرة والوسع. يذكر الشاعر أن عبق الروضة جهد نزر، ولكن ثناء الشاعر عظيم لا ينقطع، وذلك في حال انهمرت أعطيات الممدوح عليه فلسان الشاعر فصيح يُجيد المديح وفنونه.

(٢) التباريح، الواحد تبريح: الشدائد. يتغزّل الشاعر بالجارية، إنها آية جمالية، خُلِقت لابتلاء القلوب وتطويعها فتأتمر بأمرها وتوقعها بالشدائد والحسرات، فالكلّ من الرجال يودّ الاحتفاظ بها ويتمنّى رضاها.

(٣) الطاقة: القوة. إنها مصدر طاقة، ومنها يستمدّ كلّ طيب رائحته، فهي نبع طيب لا ينقطع.

(٤) مسفوح: سائل. يُعلن الشاعر أنه طوع لإرادة الجارية، فإذا قدمت إليه كأس خمر، فهو مستعدٌّ لشربها، وحينئذٍ سوف تدرّ عيناه دمعاً على خديه لاشمئزازه من الخمرة التي لا يرغب في تعاطيها رغم امتثاله لإرادتها.

(٥) يُعلن الشاعر حبّه للأمير، فهو يرغب بمجالسته ومنادمته، ولكن الليل وتقدمه يحولان بينه وبين الأمير، ولذا فهو أمضى سلاح يُفرّق بينهما.